

صالون النديم للفكر العربي

قديس الوطنية – احمد نبيل الهلالي 1928-2006

شهادات وأراء

فى وداع النبيل قديس الوطنية

د. رعوف عباس

فى جنازة شعبية مهيبة شيعت مصر ابنها البار احمد نبيل الهلالي ، شارك فى الجنازة مصريون ومصريات من مختلف ألوان الطيف السياسى من أقصى اليسار إلى أقصى اليمين، رفاق النضال فى الحركة الشيوعية المصرية منذ ما يزيد عن الستين عاما ، يتساوى فى ذلك من أضناه المرض، وجاء متحاملا على نفسه، ومن جاء معتمدا على ما بقى من رصيد الصحة ليودع "قديس، الوطنية" وشباب من الشيوعيين جاءوا لوداع "الرفيق الرمز" هاتفين لكفاح الشعب المصرى، وكفاح الطبقة العاملة، ونضال الشيوعيين، يتعهدون لنبيل بالمضى قدما على طريقه. ورجال ونساء من الناصريين والقوميين والليبراليين وشيوخ وشباب الحركة الإسلامية من الإخوان المسلمين إلى الجهاد مرورا بالجماعات، شاركوا فى الجنازة الشعبية المهيبة، وصلوا مع رفاق الحركة الوطنية المصرية على الجثمان الطاهر، وودعوه حتى مثواه الأخير.

لم يأت أى من هؤلاء المشيعين لمجرد أداء الواجب، مكلفا من هيئة أو تنظيم، ولكن جاء كل منهم بدافع من الرغبة فى وداع رجل من طراز فريد عرفته الحركة الوطنية المصرية ، وقدرت كفاحه مختل فصائلها، لم لا وقد نذر الرجل نفسه للنضال من اجل حياة أفضل للكادحين من العمال والفلاحين، ومن اجل حقوق الإنسان، وفى طليعتها حق التعبير وحق التنظيم والنضال من اجل تحقيق العدالة الاجتماعية.

لا يكاد يقع إضراب عمالى ويتم اعتقال المشاركين فيه حتى يهرع نبيل الهلالي فيكون أول الحضور من المحامين دفاعا عنه، ولا يكاد يقع صدام بين زبانية السلطة الفاسدة وبقايا الإقطاع حتى يكون نبيل

الهلالى هناك مدافعا عن المعتقلين مترافعا أمام المحاكم دفاعا عن حقهم فى الاحتفاظ بالأراضى التى وزعت عليهم تطبيقا لقوانين الإصلاح الزراعى فى عصر تأكلت فيه مكاسب العمال والفلاحين لصالح رأس مالىة رثة تنمى أرصدتها عن طريق النهب والفساد، وتقوم بتجريف الاقتصاد الوطنى، كان نبيل الهلالى دائما هناك مع الفلاحين، يجالسهم، ويشاركهم طعامهم البسيط على الطبلية كواحد منهم، وكانت آخر صولاته ذهابه إلى دكرنس للدفاع عن حق الفلاحين الذين انتزع الفساد أراضىهم التى رووها بعرقهم على مدى نصف قرن.

لم يأبه نبيل الهلالى لحالته الصحية التى اضطر بسببها أن يقيم بالمستشفى تحت العلاج ، فما كادت حالته الصحية تتحسن قليلا حتى سارع إلى ترك المستشفى حتى لا يتخلف عن المشاركة فى الفعاليات الوطنية التى تموج بها مصر: قضية استقلال القضاء والموقف التاريخى الجليل لقضاء مصر، فعاليات الحركة الوطنية من اجل التغيير، تقديم الصحافيين إلى القضاء جزاء تعبيرهم عن الرأى الحر، اعتقال المتضامنين مع القضاء وتعذيبهم، كلها كانت أحداث جرت ونبيل الهلالى فوق سرير المرض، ودفعته إلى الدخول فى خضمها مدافعا عن القضاة الذين أرادت السلطة العاشمة تأديبهم، ومدافعا عن المعتقلين من الناشطين السياسيين دون الاقتصار على فصيل دون آخر فدافع عن معتقلى الإخوان وغيرهم دون تمييز، وكيف يجرؤ قلم على ذكر التمييز عند الحديث عن رجل ناضل ضد أشكال التمييز؟!

وإذا بواقعة انتزاع أراضى فلاحى دكرنس تقع وسط خضم الأحداث فيهرع نبيل الهلالى إلى هناك حتى لا يفوته شرف الدفاع عن الفلاحين فى عصر انطلقت فيه الذئاب لتتهش مصدر رزقهم، ولكن الجسد النبيل النحيل، الذى حمل هذه النفس الذكية ما يزيد على الثمانين عاما، وذلك القلب الكبير الذى احتلته مصر، لم يتحمل كل هذا الجهد، فسقط الفارس النبيل مريضا وأجريت له جراحة فى القلب.

ولكن حاشا لله أن يستسلم "قديس الوطنية" للمرض، ويتركه ليشغله عن وطن بلغ الاحتقان فيه مداه، وعلى الرغم من وجوده فى العناية المركزة نحو الأسبوعين كان يبادر بسؤال زواره عن فعاليات الحركة الوطنية، وعن المسجونين من شباب الحركة الوطنية من اجل التغيير، وعن قضية "صوت الأمة" وعن القضاة، وجماعة 9 مارس المناضلة من اجل استقلال الجامعات، وفى قسم الإنعاش بلغه نبا رحيل أمير شباب السبعينيات احمد عبد الله، ورفيق نضال الأربعينيات يوسف درويش، ولا يعنى ذلك زوار الدقائق المعودة كانوا يتطوعون بإبلاغه كل ذلك ولكنهم كانوا مضطرين للإجابة على تساؤلاته لتجنبيه مشقة الكلام.

وعندما ترك العناية المركزة، وانتقل إلى احدى الغرف قدر لصاحب هذا القلم أن يحظى بزيارته برفقة الصديقين: عبد العال الباقورى، وأحمد غزلان، ورحب بنا ثم راح يسألنا عن تطورات موضوع نادى القضاة وعن مشروع قانون الجامعات الذى تعده جماعة 9 مارس وعمن أفرج عنهم من المعتقلين ثم راح

يؤكد ضرورة إبلاغ احمد عز الدين بالاهتمام بالطعن فى الحكم الجائر الصادر ضده أمام محكمة النقض، كل ذلك فى حدود نحو نصف الساعة قضيناها معه، وتركناه فى الساعة مساء السبت على أمل أن نلقاه بعد أيام وقد تخلص من قناع الأكسجين، ورحنا نتحدث عن ضرورة إقناعه بعد الشفاء بالحد من نشاطه العام وتحريضه على كتابة مذكراته وجمع أوراقه الخاصة "لابد أنها كنز من كنوز التاريخ الوطنى"، ولكن القدر كان له ترتيب آخر، فلم يطلع فجر الأحد 18 يونيو "بعد تسع ساعات من زيارة الوداع" حتى فاضت روحه الطاهرة إلى بارئها.

طوى السجل الحافل بجليل الأعمال من اجل مصر، المرصع بالنضال من اجل إقامة مجتمع اشتراكى يسوده العدل بمختلف أبعاده، نضال دفع نبيل ورفاقه ثمنا باهظا من حريتهم ودفعت أجسادهم ضريبة لفادحة له، ولم يكن الإيمان بالاشتراكية عنده نوعا من التشدد برطانة إيديولوجية ولكنه كان إيمانا راسخا بمبدأ ونضال متصلا لتحقيقه.

فى حفل أقامه " صالون النديم للفكر العربى " لتكريم نبيل الهلالى فى رمضان الماضى "2005/10/15" رد الرجل تحية رفاقه ومحبيه بكلمة هامة ذكر فيها الحضور بنسيانهم الزعيم العظيم الفلاح البطل احمد عربى أول من أطلق شعار " لا للتوريث " عندما قال لتوفيق " لسنا عبيدا ولا متاعا، ولن نورث بعد اليوم" فى إشارة عبقرية إلى ضرورة استيعاب دروس النضال الوطنى واتخاذها حجر الزاوية فى النضال الوطنى المعاصر. وهنا قدم الإجابة على سؤالين على درجة بالغة من الأهمية، أحدهما عن أسباب اعتناقه الشيوعية وهو ابن الأسرة البرجوازية العريقة، وثانيهما عن سر تمسكه بالشيوعية على الرغم مما أسفر عنه سقوط الاتحاد السوفيتى من قصور التجربة.

وكشفت إجابته عن السؤال الأول عن حس أنسانى نبيل عندما لفت نظره أن أبناء الشوارع المحرومين يلحسون الفاترينة الزجاجية لمحل حلويات ضخم قصده ل شراء ما لذ وطاب وهو دون سن العاشرة، فظل يشغله التساؤل حول ذلك البون الشاسع بين حياته و حياة هؤلاء التعساء، كما كشف عن دور والده احمد نجيب الهلالى باشا فى توجيهه "دون أن يدري" صوب الاشتراكية، فقد كان يؤمن بالعدالة الاجتماعية، وكان يعمل على جعل التعليم متاحا لجميع المواطنين عندما كان وزيرا للمعارف كما كان يكره الفساد، كلها مبادئ طورها الصبى نبيل فى الطريق نحو الاشتراكية.

وعن الإجابة على السؤال الثانى، أكد أن الاشتراكية لم تفقد الصلاحية وان ما حدث فى الاتحاد السوفيتى يرجع إلى أخطاء السوفيت فى التطبيق ومادامت الرأسمالية باقية على النحو المتوحش فالاشتراكية هى نقيضها وهى ضرورية وستظل هى "الحل" لكل ما يترتب على الرأسمالية من كوارث اجتماعية.

وأضاف "الماركسية فى نظرى لىست نوصا مقدسة جامدة، بل نظرية حية متجددة" واذا كان النظام السوفيتى قد سقط بكل أخطاءه وانحرافاتة فلا يعنى ذلك أن الماركسية سقطت.

وأخيرا شرح نبيل الهلالى "فى كلمته" أسباب مشاركتة فى الدفاع عن الجماعات الإسلامية فى قضاياها على الرغم من التناقض الجذرى بين فكره وفكرهم، فقال " إن موقفى ببساطة ينطلق من إيمانى العميق الذى لا يتزعزع يوما ولن يتزعزع بان فى مجال حقوق الإنسان لا مكان للانتقالية فى المواقف، والازدواجية فى المكايل "فلا بد من الدفاع عن حقوق الإنسان كل إنسان مهما كانت عقيدته الدينية واعتقاده السياسى، فالذى يحدد ما هو الإنسان هو إنسانيته وليس دينه أو لونه السياسى أو أيديولوجيته".

فلا عجب أن نرى ذلك الحشد الوطنى الذى خرج لتشجيع هذا الرمز النبيل للوطنية المصرية إلى مثواه الأخير، يضم كل مكونات الحركة الوطنية المصرية.

إذا كان الشباب قد وعدوا نبيل الهلالى بالمضى على طريقه، فما أحوجنا إلى تجميع كتاباته السياسية "وهى بالغة الأهمية" ونشرها ليفيد بها الشباب، ولعل الأسرة الكريمة التى قدمت لمصر هذا الإنسان النادر تتيح لنا أوراقه الخاصة لتكون مصدرا لكتاب يضم سيرته العطرة وما أحوجنا إلى مثل هذا الكتاب.